آيــة من ..
كتاب الله ..

الشهيد : سيد قطب

« لَقَدْ أَنزلنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ويقولون : آمَنا باللهِ وَبالرَّسولِ وأطَعْنا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنهُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنينَ ﴿ وَإذَا دُعُوا إلى اللهِ ورَسولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم إذَا فَرِيقٌ مِنهُم مُعرِضونَ ﴿ وإنْ يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يأتُوا إليْهِ مُذْعِنِين ﴿ أَفي قُلوبِهِم مَرَضٌ ؛ أَمِ ارْتَابُوا ؟ أم يَخافُونَ أَنْ يَحيفَ اللهُ عَليهِم وَرَسولُه ؟ بل أولئك هُمُ الظَّالِمُون .

« إنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أنْ يَقُولوا : سَمِعْنا وأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُم الْمُفْلِحُونَ ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، ويَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

□ □ □ □

« لَقَد أَنزلنا آياتٍ مُبيناتٍ . واللهُ يَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ » .

فآيات الله مبينة كاشفة ؛ تجلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هداه . وتحدد الخير والشر ، والطيب والخبيث . وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملا دقيقا لا لبس فيه ولا غموض ؛ وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام . فإذا تحاكم الناس إليها فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة ، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ، ولا يلتبس فيها حق بباطل ، ولا حلال بحرام .

« واللهُ يَهْدِي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » .. **والمشيئة مطلقة لا يقيدها قيد . غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقا ، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره ، فاتصل به ، وسار على الدرب ، حتى يصل ــ بمشيئة الله ــ ومن حاد**

عنه وأعرض فقد النور الهادى ولج في طريق الضلال . حسب مشيئة الله في الهدى والضلال .

ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الفريق من الناس . فريق المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام :

« وَيقولون : آمنَّا باللهِ وبالرّسولِ وأطَعْنَا . ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِن بَعدِ ذَلِكَ . وَمَا أُولَئِكَ بالْمُؤْمِنين . وَإذَا دُعُوا إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم إذَا فَرِيقٌ مِنهُم مُعْرِضُونَ . وإنْ يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يأتُوا إليهِ مُذْعِنين . أَفِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ؟ أم ارْتابوا ؟ أمْ يَخَافونَ أن يَحِيفَ اللهُ عَلَيهِمْ وَرَسولُه ؟ بل أولئِكَ هُم الظَّالِمون » .

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والإسلام عقيدة متحركة ، لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعورى الأول في كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وهؤلاء كانوا يقولون : « آمنَّا باللهِ وبالرَسولِ وأَطَعْنَا » .. يقولونها بأفواههم ، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم . فيتولون ناكصين ، يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أُولَئِكَ بِالْمُؤمِنينَ » فالمؤمنون تصدق أفعالَهم أقوالَهم . والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ، ثم يدعها ويمضى . إنما هو تكيف في النفس ، وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير ..

ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على شريعة الله التي جاء بها :

« وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليَحْكُمَ بينَهُم إذا فَرِيقٌ مِنهُم مُعْرِضونَ . وإن يَكُنْ لَهُم الحَقُّ يأتُوا إليهِ مُذْعِنين » .

فلقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن . وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطيق العدل . ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ ويأبون أن يجيئوا

إليه . فأما إذا كانوا أصحاب حق في قضية فهم يسارعون إلى تحكيم رسول الله ، راضين خاضعين ، لأنهم واثقون أنه سيقضي لهم بحقهم ، وفق شريعة الله ، التي لا تظلم ولا تبخس الحقوق .

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوى ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان . المنافقين الذي لا يجرأون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام . ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه . فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير « وَمَا أُولئِكَ بِالمُؤمِنين » فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله . إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه !

إن الرضا بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق . وهو المظهر الذي ينبىء عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب . وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله . وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيء الأدب معتم ، لم يتأدَب بأدَب الإسلام ، ولم يشرق قلبه بنور الإيمان .

ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ريبتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب :

« أفي قلوبِهِم مَرَضٌ ؟ أَمِ ارْتابوا ؟ أَمْ يَخافون أن يَحيفَ اللهُ عَلَيهِم وَرَسُولُه ؟ » .

● والسؤال الأول للإثبات . فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر . وما ينحرف الانسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة . إنما هو المرض الذي تختل به فطرته عن استقامتها ، فلا تتذوق حقيقة الإيمان ، ولا تسير على نهجه القويم .

● والسؤال الثاني للتعجب . فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل ؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين !

● والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب . فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان . فالله خالق الجميع ورب الجميع . فكيف يحيف في حكه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف . لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحدا . كل خلقه أمامه سواء ، فلا يظلم أحدا منهم لمصلحة أحد . وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف . فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم . أفرادا كانوا أم طبقة أم دولة .

وحين يشرع فرد ويحكم فلابد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة . أو كتلة من الدول لكتلة . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . إنما هي العدالة المطلقة ، التي لا يطبقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه .

من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ، ولا يحبون للحق أن يسود . فهم لا يخشون في حكم الله حيفا ، ولا يرتابون في عدالته أصلا « بل أولئِك هُم الظالِمون » .

فأما المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله . ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، هو القول الذي يليق بالمؤمنين ، وينبىء عن إشراق قلوبهم بالنور :

« إنّما كانَ قولَ المُؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أنْ يَقُولوا : سَمِعْنَا وأَطعنا . وَأولئِكَ هُم المُفْلِحون » .

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى ، النابعان من التسليم المطلق لله ، واهب الحياة ، المتصرف فيها كيف يشاء ، ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم . فالله الذي خلق أعلم بمن خلق ..

« وأولئِكَ هُمُ المُفلِحونَ » .. المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلابد أن يكونوا خيرا ممن يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بشر مثلهم ، قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .. والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد ، لا عوج فيه ولا التواء ، مطمئنون إلى هذا المنهج ، ماضون فيه لا يتخبطون ، فلا تتوزع طاقاتهم ، ولا يمزقهم الهوى كل ممزق ، ولا تقودهم الشهوات والأهواء . والنهج الإلهي أمامهم واضح مستقيم .

« وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسولَه وَيخشَ اللهَ وَيتقهِ فأولئِكَ هُمُ الفائِزونَ » .
وقد كان الحديث في الآية السابقة عن الطاعة والتسليم في الأحكام . فالآن يتحدث عن الطاعة كافة في كل أمر أو نهى ، مصحوبة هذه الطاعة بخشية الله وتقواه . والتقوى أعم من الخشية ، فهي مراقبة الله والشعور بها عند الصغيرة والكبيرة ، والتحرج من إتيان ما يكره توقيراً لذاته سبحانه ، وإجلالا له ، وحياء منه ، إلى جانب الخوف والخشية .

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، الناجون في دنياهم وأخراهم . وعد الله ولن يخلف الله وعده . وهم للفوز أهل ، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم . فالطاعة لله ورسوله تقتضى السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة ، وهو بطبيعته يؤدى إلى الفوز في الدنيا والآخرة . وخشية الله وتقواه وهي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج ، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه ، فلا ينحرفون ولا يلتفتون .

وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه ، أدب رفيع ، ينبىء عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به ، وشعوره بهيبته . كما ينبىء عن عزة القلب المؤمن واستعلائه . فكل طاعة لا ترتكز على طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هي ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ، ويستعلى عليها ضميره . فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار .

« في ظلال القرآن »

من ولدت وهي محرمة

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها أنها ولدت محمداً بالبيداء ، فذكر أبو بكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « مُرهَا فَلتَغتسِل ، ثمَّ تُهِلُّ » .
وفي رواية : أنها ولدت محمداً بذي الحليفة ، فأمرها أبو بكرٍ أن تغتسِل ، ثم تهلَّ . أخرجه الموطأ ، وأخرج النسائى الأول .